٥٤ ـ سورة القمر

مكية وآياتها خمس وخمسون

قد تقدم في حديث أبي واقد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بقاف واقتربت الساعة في الأضحى والفطر، وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار، لاشتمالهما على ذكر الوعد والوعيد، وبدء الخلق وإعادته، والتوحيد، وإثبات النبوات وغير ذلك من المقاصد العظيمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾﴾.

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها، كما قال تعالى: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾، وقال: ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾، وقد وردت الأحاديث بذلك، روى الحافظ أبو بكر البزار، عن أنس أن رسول الله ﷺ خطب أصحابه ذات يوم وقد كادت الشمس أن تغرب فلم يبق منها إلا سف يسير فقال: «والذي نفسي بيده ما بقي من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه وما نرى من الشمس إلا يسيراً»، وقال الإمام أحمد، عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بعثت أنا والساعة هكذا» وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى[1]، وفي لفظ: «بعثت أنا والساعة كهذه من هذه إن كادت لتسبقني» وجمع الأعمش بين السبابة والوسطى، وقال الإمام أحمد، عن خالد بن عمير، قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، فإن الدنيا قد آذنت بصُرْم وولت حَذّاء، ولم يبق منها إلا صُبابة كصُبابة الإناء يتصابها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا منها بخير ما يحضرنكم، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عاماً ما يدرك لها قعراً، والله لتملؤنه أفعجبتم؟ والله لقد ذكر لنا أن ما بين مصراعي الجنة مسيرة أربعين عاماً، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام»[2]. وذكر تمام الحديث. وعن عبد الرحمٰن السلمي قال: نزلنا المدائن فكنا منها على فرسخ فجاءت الجمعة فحضر أبي وحضرت معه، فخطبنا حذيفة فقال: ألا إن الله يقول: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾، ألا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإن القمر قد انشق، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق، فقلت لأبي أيستبق الناس غداً؟ فقال: يا بني إنك لجاهل إنما هو السباق بالأعمال، وقوله تعالى: ﴿وانشق القمر﴾ قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة، وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: «خمس قد مضين: الروم والدخان واللزام والبطشة والقمر»، وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات.

(ذكر الأحاديث الواردة في ذلك)

(رواية أنس بن مالك): روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آية فانشق

---

(١) أخرجه الشيخان والإمام أحمد.

(٢) أخرجه ابن جرير، معنى (صُرْم): قطيعة. و(حذاء) مدبرة لم يتعلق أهلها منها بشيء، و(صُبابة): بقية.

القمر بمكة مرتين، فقال: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾[١]، وعن أنس بن مالك أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين حتى رأوا حِراء بينهما[٢]. وروى الإمام أحمد، عن جبير بن مطعم قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد، فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم[٣]. وروى البخاري، عن ابن عباس قال: انشق القمر في زمان النبي ﷺ، وقال ابن جرير، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾، ﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾ قال: قد مضى ذلك، كان قبل الهجرة انشق القمر حتى رأوا شقيه، وقال الحافظ البيهقي، عن عبد الله بن عمر في قوله تعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ قال: وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فلقتين، فلقة من دون الجبل، وفلقة من خلف الجبل، فقال النبي ﷺ: «اللهم اشهد»[٤]. وقال الإمام أحمد، عن ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين حتى نظروا إليه، فقال رسول الله ﷺ «اشهدوا»[٥]، وعن عبد الله بن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة، قال: فقالوا: انظروا ما يأتيكم به السفّار، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، قال: فجاء السفّار، فقالوا ذلك[٦]. وفي لفظ: انظروا السفّار، فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحر سحركم به، قال: فسئل السفار، قال: وقدموا من كل وجهة، فقالوا: رأينا، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾[٧]. وروى الإمام أحمد، عن عبد الله قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، حتى رأيت الجبل من بين فرجتي القمر»[٨]. وقال ليث عن مجاهد: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «اشهد يا أبا بكر»، فقال المشركون: سحر القمر حتى انشق، وقوله تعالى: ﴿وإن يروا آية﴾ أي دليلاً وحجة وبرهاناً ﴿يعرضوا﴾ أي لا ينقادوا له بل يعرضوا عنه، ويتركونه وراء ظهورهم ﴿ويقولوا سحر مستمر﴾ أي ويقولون هذا الذي شاهدناه من الحجج سحرٌ سحرنا به، ومعنى ﴿مستمر﴾ أي ذاهب باطل مضمحل لا دوام له، ﴿وكذبوا واتبعوا أهواءهم﴾ أي كذبوا بالحق إذ جاءهم، واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهواؤهم، من جهلهم وسخافة عقلهم، وقوله: ﴿وكل أمر مستقر﴾ قال قتادة: معناه أن الخير واقع بأهل الخير، والشر واقع بأهل الشر، وقال ابن جريج: مستقر بأهله، وقال مجاهد: ﴿وكل أمر مستقر﴾ أي يوم القيامة، وقال السدي: مستقر أي واقع. وقوله تعالى: ﴿ولقد جاءهم من الأنباء﴾ أي من الأخبار عن قصص الأمم المكذبين بالرسل، وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب مما يتلى عليهم في هذا القرآن ﴿ما فيه مزدجر﴾ أي ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادي على التكذيب، وقوله تعالى: ﴿حكمة بالغة﴾ أي في هدايته تعالى لمن هداه وإضلاله لمن أضله ﴿فما تغني النذر﴾ يعني أي شيء تغني النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة وختم على قلبه؟ فمن الذي يهديه من بعد الله؟ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾.

---

(١) أخرجه مسلم وأحمد.
(٢) أخرجاه في الصحيحين.
(٣) تفرد به أحمد.
(٤) رواه البيهقي وأخرجه مسلم والترمذي وقال: حسن صحيح.
(٥) أخرجه الشيخان والإمام أحمد.
(٦) أخرجه أبو داود الطيالسي.
(٧) أخرجه البيهقي وابن جرير.
(٨) أخرجه الإمام أحمد.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾.

يقول تعالى: فتول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضوا ويقولوا هذا سحر مستمر، أعرض عنهم وانتظرهم ﴿يوم يدع الداع إلى شيء نكر﴾ أي إلى شيء منكر فظيع، وهو موقف الحساب، وما فيه من البلاء والأهوال، ﴿خشعاً أبصارهم﴾ أي ذليلة أبصارهم، ﴿يخرجون من الأجداث﴾ وهي القبور ﴿كأنهم جراد منتشر﴾ أي كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي، جراد منتشر في الآفاق، ولهذا قال: ﴿مهطعين﴾ أي مسرعين ﴿إلى الداع﴾، لا يخافون ولا يتأخرون ﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾ أي يوم شديد الهول عبوس قمطرير، كقوله تعالى: ﴿فذلك يومئذ يوم عسير * على الكافرين غير يسير﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿كذبت﴾ قبل قومك يا محمد ﴿قوم نوح فكذبوا عبدنا﴾ أي صرحوا له بالتكذيب واتهموه بالجنون، ﴿وقالوا مجنون وازدجر﴾ قال مجاهد: أي استطير جنوناً، وقيل: ﴿وازدجر﴾ أي انتهروه وزجروه وتواعدوه، ﴿لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين﴾ قاله ابن زيد وهذا متوجه حسن، ﴿فدعا ربه أني مغلوب فانتصر﴾ أي إني ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم فانتصر أنت لدينك، قال الله تعالى: ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر﴾ وهو الكثير، ﴿وفجرنا الأرض عيوناً﴾ أي نبعت جميع أرجاء الأرض حتى التنانير التي هي محال النيران نبعت عيوناً، ﴿فالتقى الماء﴾ أي من السماء والأرض ﴿على أمر قد قدر﴾ أي أمر مقدر. قال ابن عباس: ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر﴾ كثير لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب، فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم، فالتقى الماءان على أمر قد قدر، ﴿وحملناه على ذات ألواح ودسر﴾ قال ابن عباس: هي المسامير، وقال مجاهد: الدسر أضلاع السفينة، وقال عكرمة والحسن: هو صدرها الذي يضرب به الموج. وقال الضحاك: الدسر طرفاها وأصلها، وقال العوفي، عن ابن عباس: هو كلكلها أي صدرها، وقوله: ﴿تجري بأعيننا﴾ أي بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ﴿جزاء لمن كان كفر﴾ أي جزاء لهم على كفرهم بالله، وانتصاراً لنوح عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿ولقد تركناها آية﴾ قال قتادة: أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة، والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن كقوله تعالى: ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون﴾، وقال تعالى: ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿فهل من مدكر﴾ أي فهل من يتذكر ويتعظ؟ وقوله تعالى: ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ أي كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذب رسلي ولم يتعظ بما جاءت به نذري، وكيف انتصرت لهم وأخذت لهم بالثأر، ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾ أي سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أراده ليتذكر الناس، كما قال: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾، وقال تعالى: ﴿فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لدّاً﴾، قال مجاهد: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾ يعني هوّنّا قراءته، وقال السدي: يسرنا تلاوته على الألسن، وقال ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان لآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عزّ وجلّ، وقوله: ﴿فهل من مدكر﴾ أي فهل من تذكر بهذا القرآن الذي قد يسر الله حفظه ومعناه؟ وقال القرظي: فهل من منزجر عن المعاصي؟ وروى ابن

أبي حاتم، عن مطر الوراق في قوله تعالى: ﴿فهل من مدكر﴾ هل من طالب علم فيعان عليه[1].

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عاد قوم (هود) أنهم كذبوا رسولهم، كما صنع قوم (نوح) وأنه تعالى أرسل ﴿عليهم ريحاً صرصراً﴾، وهي الباردة الشديدة البرد، ﴿في يوم نحس مستمر﴾ عليهم نحسه ودماره، لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي، وقوله تعالى: ﴿تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار، ثم تنكسه على أم رأسه فيسقط إلى الأرض، فتبلغ رأسه فيبقى جثة بلا رأس، ولهذا قال: ﴿كأنهم أعجاز نخل منقعر * فكيف كان عذابي ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾.

وهذا إخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحاً ﴿فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفي ضلال وسعر﴾ يقولون: لقد خبنا وخسرنا إن سلمنا كلنا قيادنا لواحد منا، ثم تعجبوا من إلقاء الوحي عليه خاصة من دونهم، ثم رموه بالكذب فقالوا ﴿بل هو كذاب أشر﴾ أي متجاوز في حد الكذب، قال الله تعالى: ﴿سيعلمون غداً من الكذاب الأشر﴾ وهذا تهديد لهم شديد ووعيد أكيد، ثم قال تعالى: ﴿إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم﴾ أي اختباراً لهم، أخرج الله تعالى لهم ناقة عظيمة عشراء، من صخرة صماء، طبق ما سألوا، لتكون حجة الله عليهم في تصديق (صالح) عليه السلام فيما جاءهم به، ثم قال تعالى آمراً لعبده ورسوله صالح ﴿فارتقبهم واصطبر﴾، أي انتظر ما يؤول إليه أمرهم واصبر عليهم، فإن العاقبة لك والنصر في الدنيا والآخرة ﴿ونبئهم أن الماء قسمة بينهم﴾ أي يوم لهم ويوم للناقة، كقوله: ﴿قال هذه ناقة لها شربٌ ولكم شرب يوم معلوم﴾، وقوله تعالى: ﴿كل شرب محتضر﴾ قال مجاهد: إذا غابت حضروا الماء، وإذا جاءت حضروا اللبن، ثم قال تعالى: ﴿فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر﴾ قال المفسرون: هو عاقر الناقة واسمه (قدار بن سالف) وكان أشقى قومه، كقوله: ﴿إذ انبعث أشقاها﴾، ﴿فتعاطى﴾ أي جسر ﴿فعقر * فكيف كان عذابي ونُذُرِ﴾ أي فعاقبتهم فكيف كان عقابي لهم على كفرهم بي وتكذيبهم رسولي، ﴿إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾ أي فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية، وخمدوا وهمدوا كما يهمد يبيس الزرع والنبات، قاله غير واحد من المفسرين و﴿المحتظر﴾ قال السدي: هو المرعى بالصحراء حين ييبس ويحترق وتسفيه الريح، وقال ابن زيد: كانت العرب يجعلون حظاراً على الإبل والمواشي من يبس الشوك، فهو المراد من قوله: ﴿كهشيم المحتظر﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قوم ﴿لوط﴾ كيف كذبوا رسولهم وخالفوه وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور وهي

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وعلقه البخاري بصيغة الجزم عن مطر الوراق.

(الفاحشة) التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين، ولهذا أهلكهم الله هلاكاً لم يهلكه أمة من الأمم، فإنه تعالى أمر جبريل عليه السلام فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم وأرسلها وأتبعت بحجارة من سجيل منضود، ولهذا قال ههنا: ﴿إنا أرسلنا عليهم حاصباً﴾ وهي الحجارة ﴿إلا آل لوط نجيناهم بسحر﴾ أي خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد، حتى ولا امرأته أصابها ما أصاب قومها، وخرج نبي الله لوط من بين أظهرهم سالماً لم يمسه سوء، ولهذا قال تعالى: ﴿كذلك نجزي من شكر * ولقد أنذرهم بطشتنا﴾ أي ولقد كان قبل حلول العذاب بهم، قد أنذرهم بأس الله وعذابه، فما التفتوا إلى ذلك ولا أصغوا إليه، بل شكوا فيه وتماروا به ﴿ولقد راودوه عن ضيفه﴾ وذلك ليلة ورد عليه الملائكة في صور شباب مرد حسان، محنة من الله بهم، فأضافهم لوط عليه السلام، وبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها، فأعلمتهم بأضياف لوط فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، ولوط عليه السلام يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه، فلما اشتد الحال وأبوا إلا الدخول خرج عليهم (جبريل) عليه السلام فضرب أعينهم بطرف جناحه، فانطمست أعينهم، يقال إنها غارت من وجوههم، وقيل: إنه لم يبق لهم عيون بالكلية، فرجعوا على أدبارهم يتحسسون بالحيطان، ويتوعدون لوطاً عليه السلام إلى الصباح، قال الله تعالى: ﴿ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر﴾ أي لا محيد لهم عنه ولا انفكاك لهم منه ﴿فذوقوا عذابي ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾.

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وقومه، إنهم جاءهم رسول الله (موسى) وأخوه (هارون) وأيدهما بمعجزات عظيمة وآيات متعددة، فكذبوا بها كلها فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، أي فأبادهم الله ولم يبق منهم عين ولا أثر، ثم قال تعالى: ﴿أكفاركم﴾ أيها المشركون ﴿خير من أولئكم﴾ يعني من الذين تقدم ذكرهم، ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل، أأنتم خير من أولئكم؟ ﴿أم لكم براءة في الزبر﴾ أي أم معكم من الله براءة، أن لا ينالكم عذاب ولا نكال، ثم قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿أم يقولون نحن جميع منتصر﴾ أي يعتقدون أن جمعهم يغني عنهم من أرادهم بسوء، قال الله تعالى: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ أي سيتفرق شملهم ويغلبون، روى البخاري، عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر: «أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض أبداً» فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده، وقال: حسبك يا رسول الله ألححت على ربك، فخرج وهو يثب في الدرع، وهو يقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر * بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾[1]. وروى ابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ قال عمر: أي جمع يهزم؟ أي جمع يغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر» فعرفت تأويلها يومئذ[2].

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۢ ﴿٥٥﴾﴾.

يخبرنا تعالى عن المجرمين أنهم ﴿في ضلال﴾ عن الحق ﴿وسُعُر﴾ مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذكر من كافر ومبتدع من سائر الفرق، ثم قال تعالى:

(١) أخرجه البخاري والنسائي.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾ أي كما كانوا في سعر وشك وتردد أورثهم ذلك النار، ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً ﴿ذوقوا مس سقر﴾، وقوله تعالى: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾، كقوله ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾، وكقوله تعالى ﴿والذي قدّر فهدى﴾ أي قدر قدراً وهدى الخلائق إليه، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة، على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها، وكتابته لها قبل برئها، وردوا بهذه الآية وبما شاكلها على الفرقة القدرية الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة، روى أحمد، عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونه في القدر، فنزلت: ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر * إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾[١]. وعن عطاء بن أبي رباح قال: أتيت ابن عباس وهو ينزع من زمزم وقد ابتلت أسافل ثيابه فقلت له: قد تُكلِّمَ في القدر، فقال: أو قد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: فوالله ما نزلت هذه الآية إلاّ فيهم: ﴿ذوقوا مس سقر * إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ أولئك شرار هذه الأمة، فلا تعودوا مرضاهم ولاتصلوا على موتاهم، إن رأيت أحداً منهم فقأت عينيه بأصبعي هاتين[٢]، وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لكل أمة مجوس، ومجوس أمتي الذين يقولون لا قدر، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»[٣]. وقال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس»[٤].

وفي الحديث الصحيح: «استعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك أمر فقل: قدر الله وما شاء فعل، ولا تقل لو أني فعلت لكان كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان». وروى الإمام أحمد، عن الوليد بن عبادة قال: دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه أوصني واجتهد لي، فقال: أجلسوني، فلما أجلسوه. قال: يا بني إنك لن تطعم الإيمان ولن تبلغ حق حقيقة العلم بالله، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، قلت: يا أبتاه وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم ثم قال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»، يا بني إن مت ولست على ذلك دخلت النار[٥]. وقد ثبت في «صحيح مسلم»، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»، زاد ابن وهب: ﴿وكان عرشه على الماء﴾[٦]. وقوله تعالى: ﴿وما أمرنا إلاّ واحدة كلمح بالبصر﴾ وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه، كما أخبر بنفوذ قدره فيهم، فقال: ﴿وما أمرنا إلاّ واحدة﴾ أي إنما نأمر بالشيء مرة واحدة، لا نحتاج إلى تأكيد بثانية، فيكون ذلك موجوداً كلمح البصر لا يتأخر طرفة عين، وما أحسن ما قال بعض الشعراء:

إذا مـــا أراد الله أمـــراً فـــإنـــمـــا ... يـقـول لـه: كـن ـ قـولـة ـ فـيـكـون

وقوله تعالى: ﴿ولقد أهلكنا أشياعكم﴾ يعني أمثالكم وسلفكم من الأمم السابقة المكذبين بالرسل، ﴿فهل من مدّكر﴾؟ أي فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك، وقدّر لهم من العذاب، كما قال تعالى: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل﴾، وقوله تعالى: ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾ أي مكتوب

---

(١) أخرجه مسلم وأحمد والترمذي.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٣) أخرجه الإمام أحمد.
(٤) رواه مسلم وأحمد عن ابن عمر مرفوعاً.
(٥) أخرجه أحمد والترمذي، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.
(٦) أخرجه مسلم والترمذي.

عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة عليهم السلام، ﴿وكل صغير وكبير﴾ أي من أعمالهم ﴿مستطر﴾ أي مجموع عليهم ومسطر في صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها، وقد روى الإمام أحمد، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالباً»[١]. وقوله تعالى: ﴿إن المتقين في جنات ونهر﴾ أي بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر، والسحب في النار على وجوههم، مع التوبيخ والتقريع والتهديد، وقوله تعالى: ﴿في مقعد صدق﴾ أي في دار كرامة الله ورضوانه، وفضله وامتنانه، وجوده وإحسانه ﴿عند مليك مقتدر﴾ أي عند الملك العظيم، الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون، وقد روى الإمام أحمد، عن عبد الله بن عمرو يبلغ به النبي ﷺ قال: «المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»[٢].

[آخر تفسير سورة اقتربت، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة]

* * *

(١) أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجة.
(٢) أخرجه مسلم وأحمد والنسائي.

obeikandl.com